محاضرة

أحمد دياب صوَرٌ في مهبّ التحوُّلات الكبرى

تمثيلات العرب في المخيال الفلسطيني

كيف يتخيّل الفلسطينيُّ آخرَه العربي؟ كان هذا محورَ محاضرة قدّمها أستاذ الأدب والسينما العربية الحديثة في قسم دراسات الشرق الأوسط بـ «جامعة كاليفورنيا» في بركلي، مسالةً قلّما جرى التطرُّق إليها، عن مكان العربي في المخيال الفلسطيني، عكس التيار الواسع الذي قام خطابُه عربياً على مركزية القضية منذ الحرب العالمية الثانية، بوصف فلسطين مجازاً للعدالة ورمزاً لمظلمة كبرى بحقّ العرب. جاء ذلك في سيمنار «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» بالدوحة، يوم الأربعاء الماضي، وكان عنوانُ محاضرة دياب «من حميم إلى آخر: البحث عن العربي في المخيال الفلسطيني».

تناول الباحثُ، في محاضرته، قضايا الهوية والغربة، من خلال مقاربة تتناول الفلسطينيّين بوصفهم منتجي سرديات، بدلاً من أن يكونوا مواضيع للسرد العربي، وعرَض مجموعة نصوص فلسطينية مفصلية من النثر والسينما والشعر، أبرزُ من خلالها تشكّل تصوّرات ديناميكية متعدّدة عن العرب.

وقد ركّز في عرضه، أساساً، على فترة الانتداب البريطاني، من خلال صورة العربي في بعض أبرز الأعمال الأدبية والسينمائية فيها، لا سيما منها أعمال إبراهيم الدبّاغ، وعبد الرحيم محمود، وإبراهيم طوقان، ونجاتي صدقي. كما سلّط الضوء على قضايا الهوية والغربة من خلال كتاب إدوارد سعيد، «بعد السماء الأخيرة»، الذي هو بصدد ترجمته إلى اللغة العربية.

أحدُ تجلّيات الفلسطيني عربياً، تبعاً للقضية السياسية الاستعمارية، هو الفلسطينيُّ في صورة اللاجئ، أو بالأحرى اللاجئة «مهيضة الجناح في مجازٍ جنوسي (جندري)، سيظهر في الإعلام وفي السينما مبكّراً» وفق المثال الذي استحضره الباحث عبر الفيلم المصري «فتاة من فلسطين» عام 1948.

مقابل هذا، يرى دياب أن ثمّة «مزعمة فلسطينية منبثقة من علاقة جدلية مع الأولى العربية، تقول بوجود رغبة فلسطينية في أن يهبّ العرب لنجدة فلسطين، أو إنقاذها إذا ما اقترنوا من أدبيات حرب النكبة بما فيها «جيش الإنقاذ»، وهذه الرغبة لم تتحقّق». استعان الباحث في أطروحته هذه بنظريات طوّرها علماء النفس، وخصوصاً جاك لاكان، بشأن المخيال والرغبة والتنصّل واللاشعور. تستند المفارقة التي يلاحظها دياب ويدرسها إلى ما يراه لاكان؛ إذ يقول إنّ «الرغبة التي لا تتحقّق لا تفنى بل تقوى وتشتدّ». والحال لدى الفلسطيني أنه يُصرّ على تكرار نداء «يا عرب» مع تتالي الخذلان العربي، بل يُحوّله «من منجد إلى مُتواطئ أو متآمر».

يعرف الباحث أنّ تمثيلات العرب في المخيال الفلسطيني، أو العكس، وقعت تحت تحوُّلات كبرى، فليس الفلسطينيُّ دائماً هو اللاجئ، كما أنّ الشتات التراجيدي داخل البلاد وخارجها أوجد مخيالات فلسطينية عديدة، تبعاً للظرف التاريخي الذي عاشه الفلسطيني تحت الحكم الاستعماري مباشرةً، أو في بلدان عربية ذات هويات وطنية، وتحالفات سياسية تناقضت فيما بينها أكثر ممّا تناقضت مع عدوّها الأول.

لكلّ هذه التحوّلات خلال أربعة وسبعين عاماً منذ «النكبة»، ارتأى دياب أن يسلّط الضوء أكثر على صورة العربي، في فترة الاحتلال البريطاني لفلسطين، وقد بدأت تتشكّل منذ بدايات القرن العشرين صورةٌ قاتمة لمستقبل فلسطين، مثلما بدأت تتشكّل صورة «العربي المنقذ».

من مطلع القرن الماضي، يستعيد الباحثُ قصيدةً مبكرّة لـ إبراهيم الدبّاغ (1888 - 1946) يقول فيها: شبح الرحيل أما تكف عن الأذى/ شبح الرحيل أما تني تغشى لي؟

يطالع دياب نماذج شعرية لأبرز الأسماء الفلسطينية تحت الاحتلال البريطاني: عبد الرحيم محمود، وإبراهيم طوقان، وأبو سلمى، وهي أصوات تكفّلت، مع غيرها، ببناء خطاب فلسطيني عن الذات ومكانة الفلسطيني في محيطه العربي.

هذه قصيدة عبد الرحيم محمود التي ألقاها بحضور الأمير سعود بن عبد العزيز عام 1935 لدى زيارته فلسطين، قبل أن يصبح ملكاً على السعودية وفيها:

يا ذا الأمير أمام عينك شاعرٌ
ضمّت على الشكوى المريرة أضلعُه
المسجد الأقصى أجئت تزورُهُ
أم جئت منْ قبل الضياع تودّعُه؟

أحمد دياب (إلى اليمين)، جانبٌ من السيمنار

الانكفاء والغياب

يلاحظ أحمد دياب، في محاضرته، بأنّ الآخر العربيّ يكون غالبًا عند لحظات الانكفاء الفلسطيني على الذات، ومثالُ ذلك «رجالٌ في الشمس» لغسّان كنفاني (الصورة من رسومات كمال بلّاطه للرواية)؛ حيث الأحداث كلّها تجري بدءاً من البادية الأردنية حتى البصرة وأخيراً الكويت، وضحاياها جميعُهم فلسطينيون على بُعد مَن نكتشف أنه مهرّب فلسطيني. هذا الانكفاء - يُضيف المحاضر - يقع حتى عندما يتخيّل الفلسطينيُ منفاه العربي.

ولم تعدم صورةُ «المخلّص العربي» الماثلةُ من عتاب ذي مسحة ساخرة على لسان إبراهيم طوقان (1905 - 1941) في قصيدة بعنوان «عتاب إلى شعراء مصر»:

كم بلاد تهزّكم ليس فيها لكم جيرةٌ ولا إخوانُ
خطبُنا لا يهزّ شوقي ولكن جاء روما فهزّه الرومانُ
خطبُنا لا يهزّ حافظ إبرا هيمَ لكن تهزّه البابانُ
ما لمطران يا فلسطينَ شانٌ بك لكن له بنيرونَ شانُ

ومرّ الباحثُ على مثال آخر، لك أن تختار فتحسبه ضرباً في فيافي الخيال أو حقيقة ترى الغد بالعين المجرّدة، وهو قصّة لنجاتي صدقي نُشرت في مجلّة «الرسالة» المصرية عام 1946، أي قبل التقسيم وقبل النكبة، وعنوانها «أخيال أم حقيقة؟ فلسطين بعد ربع قرن!». في هذه القصة يتخيّل صدقي فلسطينَ بعد 25 عاماً، أي في عام 1965، عبر أب يمتحن ابنَه في درس التاريخ، وتظهر فيها صورةُ عربي يدافع عن التقسيم وآخر يرفضه، بل إنّ إحدى شخصيات القصة نقلت خبر انفاق الكيان الصهيوني: «روى السيّد الملّاح خبر اكتشاف قوّة الحدود العربية نفقاً نقبه اليهود تحت الحدود، كانوا يهرّبون منه البضائع المصنوعة في تل أبيب».

قبل النكبة بعامين، كانت قصّة صدقي تستقي من خصمَ ماساوي يرسم مآلاته بوضوح على الأرض، وتُورد على لسان شخص: «هكذا فلا تنقضي حقبة من الزمن حتى يكون العرب قد أقاموا في فلسطين مجتمعاً عربياً راقياً فاضلاً تتضاءل إزاءه أخطار الدولة اليهودية، ويصير مصيرُها إلى التلاشي أو إلى البقاء في الشرق كما هي إمارة تنشتاين في الغرب».

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

مقتطف

فصلٌ من رحلة عزيز نيسين إلى مصر

طلبة أتراك في الأزهر

«الدنيا قدرٌ كبيرٌ وأنا مغرفة»: رحلة مصر والعراق» كتاب لعزيز نيسين (1915 - 1995)، يسجّل رحلة الكاتب التركي إلى مصر عام 1966. هنا فصل منه

عزيز نيسين

يريد القرّاء الأتراك، من الكُتّاب الأتراك الذين يزورون القاهرة أن يكتبوا لهم عن الجامع الأزهر والطلاب الأتراك هناك، فمن المستحيل أن تزور القاهرة دون أن تذهب إلى الأزهر. الجامع الأزهر الذي يقول عنه الجميع إنّه قلعة الرجعيّين. عرفتُ وأنا في القاهرة أنّنا لا نعرف شيئاً عن مصر، أو أنّ معلوماتنا خاطئة، إذا كنّا نفكّر حتى الآن أنّ الأزهر هو قلعة الرجعيّين، فإنّنا لا نعرف شيئاً عن الثورة المصرية. لا أقصد أن أقول: إنّ الأزهر تقدّمي، هو جامعة مثل كلّ الجامعات في العالم، لكنّها جامعة عربية في القاهرة.

يوجد في الأزهر 60 طالباً تركيّاً، وأغلبهم جاؤوا من أرياف الأناضول، وأكثرهم من «جماعة النور» أو ما شابه. أراد هؤلاء الشباب أن يعودوا إلى بلادهم رجالَ دين، لكنّهم بعد أن باتوا إلى القاهرة ويدرسوا في جامعة الأزهر تتغيّر أفكارهم بشكل كبير. كان أهالي هؤلاء الطلاب يحدّثون أبناءهم عن الأزهر ويتمنّون أن يُرسلوا أبناءهم للدراسة فيه باعتباره جامعة دينيّة، لكنّ الطلاب يدرسون في الأزهر كأيّ جامعة أخرى. يوجد في جامعة الأزهر كليّات للتخصّص في علوم الدين، ولكنّ توجد كليات أخرى مثل التي في كل الجامعات، وأغلب الأتراك يدرسون في الكليات الدينية، وبينهم من يدرس أيضاً الاقتصاد أو الأدب.

أسوأ جانب في هذا الأمر، أنّ الطلاب الأتراك يدرسون في الأزهر بشكل غير رسميّ، لأنّ الحكومة التركية لا تريد لشبابنا أن يدرسوا في الأزهر، وعندما يعودون إلى تركيا بعد ذلك، تُعرقل الحكومة عودتهم إلى بلادهم. في حين أنّ وجود هؤلاء الشباب طبيعيٌّ في القاهرة ولا مانع من ذلك.

في تركيا قسمان لا يريدان لشبابنا أن يأتي للدراسة في الأزهر؛ الأول هم الذين يُسمّون أنفسهم تقدميّين ويظنّون أنّ الأزهر لم يتغير، وأن شبابنا سيصبحون رجعيّين إذا درسوا هناك، وهؤلاء لا يعرفون شيئاً عن الأزهر ولا مصر بشكل عام. القسم الثاني هم الرجعيّون في تركيا، الذين يظنّون أنّ الشباب الأتراك إذا ذهبوا للدراسة في الأزهر فإنّهم سيعودون شيوعيّين، لأن الأزهر تغيّر تماماً ولم يعد مثلما كان في الماضي. والقسمان بعيدان تماماً عن الحقيقة.

لا يُقبّلني ولا يسمح لأحد بأن يُقبّلني

سأحكي لكم نكتة أولاً؛ كان هناك رجلٌ غير موفّق في واجباته الزوجية، وبدأت زوجته في خيانته مع أحد الشباب. ويوماً ما، عاد الرجل فجأة إلى بيته، وأمسك بالشاب مع زوجته وبدأ يصرخ في وجهه محاولاً ضربه. أوقع الشابّ الرجل على الأرض وبدأ في ضربه بالفعل، وعندما رأت المرأة هذا قالت:

- اضرب اضرب... إنه لا يُقبّل ولا يسمح لأحد بالتقبيل.

لنأت الآن إلى حكومتنا، إذا أرادت الحكومة فسوف يذهب الشباب التركي للدراسة في أيّ جامعة يختارها، مثلما يحدث في كلّ العالم، مثلاً، يذهب طلّاب من آسيا وأفريقيا وأوروبا للدراسة في الجامعات السوفييتية. إلا أن حكومتنا لا توافق على ذلك. هل تسألون لماذا؟

تقدميون يظنون الأزهر لم يتغير ورجعيون يظنونه شيوعياً

لأنهم سيصبحون شيوعيين. هذه كذبة كبيرة. لندع الشباب يختار ما يريد. هناك من يذهب هرباً من تركيا للدراسة في الجامعات السوفييتية، وتركيا تخدع بعض هؤلاء الطلاب وتجعلهم يقولون في الصحف:

- عدتُ إلى تركيا بعد أن حاول الروس أن يجعلوني جاسوساً.

حسناً، نحن لا نرسل طلابنا إلى الاتحاد السوفييتي، ولكنّ لنترك الطلاب يذهبون في المنح الدراسية للدراسة في جامعة الأزهر. يوجد حوالي 1500 طالب أجنبي في الأزهر جاؤوا بمنح دراسية، ومن الممكن أن نرسل من تركيا حوالي مئتي طالب كلّ عام، لكنّ الحكومة لا توافق بدعوى أنّ البعض منهم سيصبحون شيوعيين، والبعض الآخر سيصبحون رجعيين. وكأننا تقدّميّون أصلاً!

حسناً، لن يذهب طلابنا إلى الاتحاد السوفييتي أو مصر، ولكن عليكم أنتم أن تُعلّموا هؤلاء الطلاب، وإلا يُعرقل التحاق الطلاب بالجامعة. حكومتنا مثل الرجل الذي في النكتة، لا تُقبّل ولا تسمح لأحد بالتقبيل. سيذهب الطلاب الأغنياء إلى جامعات في أوروبا وأميركا، ولكنّ ماذا سيحدث لبقية الطلاب، هل سيجدون عملاً بهذه الطريقة؟

فصل من كتاب «الدنيا قدرٌ كبيرٌ وأنا مغرفة: رحلة مصر والعراق» الحاصل على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة (2021 - 2020) فرع «الريبورتاج الرحلي المترجم - الرحلة الصحافية»، بترجمة أحمد زكريا وملاك دينيز أوزدمير، ويصدر في الأشهر القادمة.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

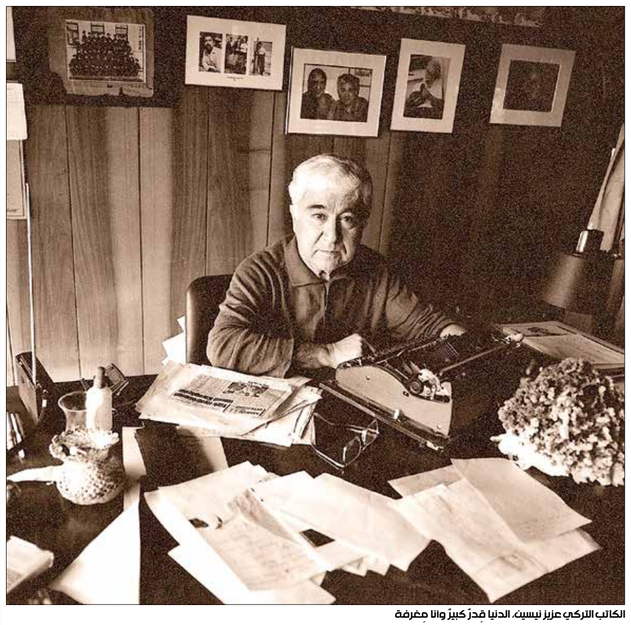
الكاتب التركي عزيز نيسين، الدنيا قدرٌ كبيرٌ وأنا مغرفة

إطلالة

دقائق من الهمجية تدمّر سنوات من الجمال

ضوء إلى قَمريات الأقصى

تتصادى الحضارة في بضعة سنتيمترات زجاجية تعشّقتها أيادي المقدسيّين، لتنير الجُصّليّات بأنوار القمر أو الشّمس، ومن هنا استقت القَمَريّات اسمها

أنس الأسعد

كم يتمنّى المرء، وهو يراقب المواجهة البطولية واليومية للمقدسيّين ضدّ الاحتلال الإسرائيلي وأدواته، أن يمتلك هذا الأخير، ولو لمرّة واحدة، عينين واعيتين، تتمعّنان قليلاً بواقع حاله الذي لا يحتكم لشيء سوى البشاعة، ونظامها المنبتّ عن الإنسانيّة، ففي الإنسانية مسحة من تفهّم للجمال. بيد أنّ عيوناً فاجرة، ولا أقول عمياء، هي ما تتملّك وجود الصهيونيّة وهي ما تجعل الصراع معها خارج حسابات الصّلة بما هو إنسانيّ.

في مقاله الذي خطّه على صفحات «العربي الجديد»، قبل أيام، وحمل عنوان «الاحتلال كحرفة إزعاج»، يصف الكاتب الفلسطيني عاطف الشاعر تجربته بعد أن أُبعد بقرار احتلاليّ تعسّفي عن بيرزيت التي كان طالباً في جامعتها، فلم يجد - قبل عودته إلى غزة - مقصداً غير الأقصى يطمئنّ إلى جماله، ويرتوي بمنظر جموعه نساء ورجالاً، وكان قد نال منه شيءٌ من حزن وتعب على الصعيد الشخصي.

تشفّ كلمات الشاعر عن تجربة حيوية تذهب في استحضار الجمال كلّ مذهب، إلّا أنّ المشهد الذي وصفه يبقى عامّاً، لذا وجدتُني أتتبّع الدّقيق منه، وأخبار المواجهات تتواتر لحظة بعد لحظة، وأخرها مواجهة بالغ فيها الاحتلال بالدّناءة، باستهدافه تلك السنتيمترات الزجاجيّة الملوّنة التي درج المقدسيّون على تسميتها بـ«القَمريّات»، إذ لم تسلم - على لطافتها ورقّتها - من همجيّة البشاعة الصهيونيّة بوصفها آلة عنفٍ صمّاء.

«قَمريّات الأقصى»، لمن لا يعرفها من أبناء المدن الإسمنتيّة، هي جزء أصيل من العمارة الإسلاميّة، تمتزجُ في صناعتها الحرفة اليدويّة بروح العراقة والانتماء، ويُقال إنّ جذورها تعود إلى اليمن قبل أربعة آلاف عام، بمعنى أنّ الحضارة تتصادى في كينونتها وتتعشّق، كما تُعشّق زجاجها أيادي المقدسيّين اليوم، لا لتنير المصلّيات بأنوار القمر أو الشّمس فقط - ومن هنا استقت اسمها - إنّما لتسلّط ضوءاً كاشفاً على كلّ الذين اختاروا البقاء والمواجهة، ولعلّها بالمقابل تُبهرُ أعيناً استمرّات عتمة كهوف الاستسلام والخوف.

للقَمريّة الواحدة قصّة ورحلة ما بين التصوّر والتشكيل والاستواء، فهي ليست مجرّد نصف دائرة تعلو النّافذة، إنّما تبدأ حكايتها من العجينة الأوّليّة التي تجمع الجصّ والماء ثمّ تُؤطّر بألواح من خشب، وما إن تجفّ حتى تحفرُ عليها السكاكين الرسومات الفنّيّة، التي سيتسلّلُ الضوء منها لاحقاً، ومن ثمّ تبدأ مرحلة الطباعة والزخرفة وتركيب الزّجاج المعشّق والملوّن عليها. ويستغرق كلّ متر مربّع منها قرابة 120 أو 140 ساعة من العمل والتّصميم، وهذا يعني أنّ النافذة الواحدة قد تستغرق من الوقت ستّة أشهر. ولكنّ، مقابل كلّ هذا المجهود والأصالة، لا يتطلّب الأمر من جنود الاحتلال سوى دقيقة واحدة، لتهشيم القَمريات وتكسير زجاج تعب المقدسيون في صنعه، ومزجوا عجينته بماء البلاد وعرق أهلها.

(كاتب من سوريّة)

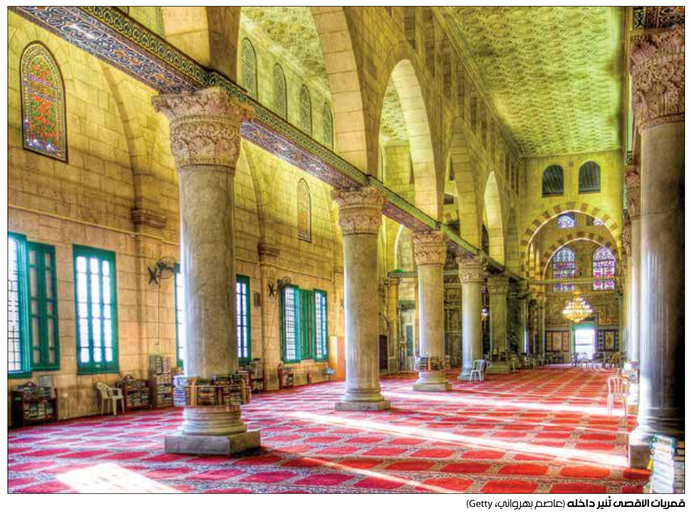
قَمريات الأقصى تُنير داخله (عاصم بهروالي، Getty)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فعاليات

تحتضن مدينة مالمو جنوب السويد، بين الرابع والتاسع من أيار/ مايو المقبل، فعاليات الدورة الثانية عشرة من **مهرجان مالمو للسينما العربية**. يُعرض في الدورة الجديدة 56 فيلما، من بينها 12 ضمن مسابقة الأفلام الروائية والطويلة، و25 ضمن مسابقة الأفلام القصيرة، بينما تُعرض بقيّة الأفلام خارج المنافسة.

تُطلق «مؤسسة الدراسات الفلسطينيّة»، يوم الخميس 12 أيّار/ مايو المقبل، **الموسوعة التفاعلية للقضيّة الفلسطينية**؛ وهي مشروع رقمي يهدف إلى تتبُّع تاريخ فلسطين الحديث منذ نهاية الفترة العثمانية وحتى الوقت الراهن. تُبثّ الفعالية عبر «زووم»، ابتداءً من الحادية عشرة صباحاً، ومن بين المتحدّثين فيها: **عادلة العايدي**، و**هنيّة خالد فرّاج**، و**كميل منصور**.

بعنوان **ام كلثوم تعود من جديد**، تُقدّم «فرقة مسرح العرائس» في «ساقية الصاوي» بالقاهرة، عند السادسة من مساء الخميس المقبل أغنيتين لـ «كوكب الشرق»؛ هما **هذه ليلتي** (1968) من كلمات **جورج جرداق** والحان **محمد عبد الوهاب**، و**ليلة حب** (1973) من كلمات **احمد شفيق كامل** والحان **عبد الوهاب**.

على خشبة «المسرح الوطني» في مدينة صُور جنوب لبنان، تُعرض مسرحيّة **غيّر يا غزيّل** أيام الثاني والثالث والرابع من أيار/ مايو، عند الخامسة والسابعة مساءً. النّص مقتبَس عن عمل للكاتب الإيطالي **داريو فو**، ومن إخراج **جنى الحسن**، وتمثيل **قاسم إسطنبولي** و**لارا الحاج** وآخرين.